انتاج الانسان بحيث اصبحت فرديته الظاهرية مجرد قناع ، اي تحول المجتمع الى قـــوى اجتماعية ــ طبقية مجردة يصعب العثور فيها على فرد متميز محدد الملامح ، لذا كان على الرواية ان تبحث هذا الانسان المتميز المعبر عن زمانه في خيالها الروائي ، اي ان تتمثل الواقع المعاش وتعيد انتاجه وتركيبه فنيا ، ان تحتضن الواقع مجردا وتبنيه فنيا بشكـــل يجعل التجريد تحديدا · توجب على الرواية ان تقرأ العلاقات المجـــردة المكتوبة فـــي الممارسات الطبقية لتستخلص منها افعالا مشخصة ونمطية تبني انطلاقا منها سلسلة مواقف تحمل التجريد والتحديد معا كي تعطي في النهاية فعلا ملحميا حقيقيا وذا دلالة · لقـــد عكس تعقد الواقع نفسه على الرواية فجعل بناءها اكثر تعقيدا ، فنمت في كثافة الواقـع ورصدت هذه الكثافة فنيا وحاولت ان تخلق معادلاتها الفنية التي تمسك بالعام والخاص، بالنمطي والفردي ، بالمجرد والمشخص · وفي سيرورة البحث عن المعادل الفني للخصائص التاريخية قامت الواقعية العظيمة (بلزاك ···) ·

يستلزم التملك الفني للخصائص التاريخية الاساسية للواقع الاجتماعي تملك هذا الواقع معرفيا ، وفي مسار هذا التملك الثنائي البعد تنمو وتتطور بنية العمل الروائي · ينتـــج عن ذلك ان تعقد الحركة الاجتماعية يفرض بنية روائية موائمة ، لان كل نقل مباشر للواقع المباشر لا ينتج الا صورة ساذجـة وميكانيكيـة · واقتحـام الحركـة الاجتماعيـة المعقـدة وصياغتها فنيا يفرض ابتعادا عن الواقع العادي واعادة تركيبه كي يتضمن حركة الواقـع الحقيقية و « المضمون الجوهري للعقلانية » · وهذا التملك العقلاني للواقع يعكس ذاتـــه على الشخصية الروائية التي تحمل هذا الواقع وتتطور كحياة خاصـــة وكحامل مشخص للقوى الاجتماعية الاساسية ، وبالتالي فان هذه الشخصية تمثل حياة فردية من ناحيـــة وحياة مجتمعية من ناحية ثانية · فهي وحدة الفردي والنمطي المعبرة عن نفسها في الفعل الروائي الذي يحتضن ديالكتيكيا ــ الانسان ووجوده الاجتماعي ، الفردي وتناقضـــات مجتمعه التي تحدد مصيره ·

وبشكل عام فان الشخصية الروائية لا ترقى الى مستوى النمطية لمجرد كونها تمثـــل محصلة احصائية لصفات وممارسات زمرة او طبقة اجتماعية محددة ، بل لكونها تحمـل في خصائصها التحديدات النمطية موضوعيا للمصير العام لطبقة ، الذي يتجلى في الوقت ذاته وموضوعيا كمصير فردي متميز · ونزوع العمل الروائي الى رسم الشخصية النمطية يتضمن طموحا الى رسم كلية المجتمع ، اي رسم العلاقات الانسانية والاطار الاجتماعـــي العام الذي يتوسط بين هذه العلاقات ، والكلية هنا لا تعني وصفا لعناصر اجتماعيـــة معزولة بل ضرورة مكتوبة في العمل الروائي النازع الى احتضان شمولية العالم ، ومنطق ضرورتها يفعل في البنية العامة للعمل الروائي ·

تطور الرواية

لما كانت الرواية « وليدة » المجتمع البرجوازي ، كان لزاما عليها ان تتطور بتطـــور المجتمع الذي انتجها ، تتقدم وتزدهر بتقدمه وازدهاره ، وتميل الى التدهور والانحطـاط عندما ينزع الى ذلك · فسيرورتها هي سيرورة نمط الانتاج الموافق لها ، وكل تغير فـــي الشكل التاريخي لنمط الانتاج هذا ينعكس بالضرورة في البنيان الروائي بحيث يكـــون « شكل ومضمون » المجتمع البرجوازي هو « شكل ومضمون » النوع الروائي · ان تحولات زمن الرواية كنوع ادبي هي تحولات المجتمع البرجوازي المرتبط بنمط انتاج محدد تاريخيا·